

تحيات

الأدب الإسلامي .. ووسطية د. عبد الحميد

حينما صدر كتاب «الوسطية العربية» في طبعته الأولى عام ١٩٧٩ لم أكن قد التقيت بالدكتور عبد الحميد إبراهيم، ولا عرفته معرفة شخصية، مع أنني كنت أعرفه سماعاً وأنا طالب صغير، فسمعتة العلمية كانت تصل إلي دون طلب مني ولا سعي إليهما، لكن الطالب النجيب الذي كنت أسمع عنه ويرن اسمه في أذني هو عبد الحميد الزمبيلي، وحينما تفتحت عيني على القراءة، وقرأت لعبد الحميد إبراهيم محمد في الستينيات لم أكن أعرف في البداية أن هذا هو ذاك، لكن كنت أعجب بكثير مما أقرأ له في مجلة أو في كتاب، وكان بعض ما يكتبه لا يعجبني وهو قليل.

ولما عرفت أن الدكتور عبد الحميد إبراهيم محمد هو هو الطالب النجيب عبد الحميد الزمبيلي ابن مدينتي سرني ذلك كثيراً، فالذي يجمعني به كثير، البيئة والنشأة وطريقة التعليم والمنهج وحب العلم والعصامية... وقد كان ذلك من دافوع متابعتي لما يكتب ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

فلما صدر كتاب «الوسطية العربية» لم يكن صاحبه غريباً عني بعقله وفكره، وإن كان غريباً عني بشخصه، ولا أخفي أنني أعجبت بالكتاب إعجاباً كبيراً.

ولما التقيت بالدكتور عبد الحميد إبراهيم لأول مرة في مهرجان شوقي وحافظ الذي أقامته وزارة الثقافة في مصر عام ١٩٨٢ بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاتهما كنت بالنسبة إليه شخصاً مجهولاً، ولم يكن عندي كذلك، ولا عند الحركة الثقافية في مصر، فهو رجل صاحب مذهب ومنهج ورؤية، وكان إلى جانب ذلك يقيم مهرجاناً سنوياً لطله حسين في المنيا - مسقط رأس طه حسين ومقر عمل د. عبد الحميد إبراهيم - يدعو إليه المثقفين من داخل مصر وخارجها، وقد دعاني إلى المشاركة في هذا المهرجان عام ١٩٨٣، وكان محور المهرجان في ذلك العام هو «القصة» وفيه تم تكريم الأستاذ يحيى حقي، وفي هذا المهرجان قدمت بحثاً بعنوان: «نجيب الكيلاني والعالم الضيق» وهو الذي نشر فيما بعد في العدد الخاص من مجلة الأدب الإسلامي عن نجيب الكيلاني، وقد سمعت د. عبد الحميد إبراهيم - وكان يجلس على مقربة مني - يقول: هل سنشغل بنجيب الكيلاني أم بنجيب محفوظ؟!

زايد، أن الوسطية هي الخلاص لهم من المآزق، فهي ذات نظرة إنسانية واسعة، وتتعامل مع مقاييس حضارية، إنها لا تنكر الأدب الإسلامي، ولكنها توسع دائرته، وتمنحه رؤية معاصرة، تساعد على انتشاره، في عصر العولمة والديمقراطية، إنها تمنح رافداً جديداً للحضارة الإنسانية، لا يقل عن رافد الفن الإسلامي، أو العمارة الإسلامية، إنه رافد يعكس مجموعة من الخصائص تعبر عن الروح الإسلامية، ولا تتصادم مع العقيدة الدينية. ليس همها الأول أن تفتش عن عقيدة الرجل أو أن تشرح العبادات والمعاملات، فلكل هذا ميدانه ورجاله، أما الوسطية فميدانها النصوص الأدبية، التي تخاطب الجانب المشترك عند بني الإنسان بوجه عام، وهي في الوقت نفسه تبرز الخصوصية للحضارة الإسلامية، كرافد مميز يجمع بين الأصالة والتنوع، بين الخصوصية والعالمية.

- ٨ -

وختاماً أيها البلديات، دعني أسر إليك بنكتة عن الصعيدي، الذي اعوج أصبعه، فذهب إلى كل الأطباء لكي يعالجوه، ويعيدوا الأصبع إلى وضعه الصحيح، فلم يفلحوا ولكن ابن عمه الذي يعرفه تمام المعرفة، سأل: «وكيف كان أصبعك من قبل أن يعوج؟» فأجاب: كان هكذا، وأعادته إلى وضعه الصحيح.

ومن ثم أهمس اليك: اعدل قلمك. أو بعبارة أخرى «وكيف كان قلمك يا ابن العم».

ردود ومناقشات

للأدب الإسلامي، وكنت أتوقع أن الدكتور عبد الحميد سيتواضع ويقبل دعوتي له إلى قراءة العدد المزدوج من مجلة الأدب الإسلامي الذي دار حول أدب نجيب الكيلاني، وإلى قراءة العدد الخاص من مجلة المشكاة عنه أيضاً وإلى قراءة مقالتي صديقه وصديقي د. حامد أبو أحمد عن نجيب الكيلاني الذي كان يجهله كما يجهله د. عبد الحميد، ولكنه بعد أن قرأ له بعض الروايات كتب عنه ما ينصفه، ولكن توقعي كان قائماً على غير أساس، فلم يكن في رد الدكتور عبد الحميد ما ينم عن أنه قرأ كلمة واحدة مما دعوته إلى قراءته، ولا ما ينم عن أنه حاول أن يزداد معرفة بالأدب الإسلامي الذي تدعو إليه رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

ومع هذا كله فإنه يبيح لنفسه أن يتكلم في هذه القضية، وأن يتصور المآزق وأن يقترح الحلول.

فهل تبيع الوسطية العربية لداعيها ورابعها أن يتكلم في قضية لا يحيط بها علماء، ولا حتى يلم مجرد إلمام بأطرافها؟ وهل يجيز المنهج العلمي لأستاذ جامعي أن يفعل هذا؟

هذه هي مشكلة القراءة الناقصة التي تحدثت عنها بالتحديد، وليس ما خيل إلى الدكتور عبد الحميد، فليست القضية منحصرة في أنه ركز على الرواية دون أجناس الأدب الأخرى بحكم تخصصه الدقيق الذي يمثل بالنسبة إليه قضية حياة ووجود (١)، ثم عمم أحكامه على جميع أجناس الأدب الأخرى، ولكن القضية أيضاً أنه لم يستقرئ الروايات التي ستدخل في مجال الرواية الإسلامية، لا استقراء تاماً ولا استقراء



بقلم: عبد الحميد

الذي سلفت الإشارة إليه [١٢٧ - ١٦٠]، كما نشر بعضاً منه في كتابه «الرواية العربية والبحث عن جذور» [ص ١٦ - ٢١]، وفي هذا البحث الذي تكرر نشره حتى يصل إلى أكبر عدد ممكن من الطلاب والقراء تحدث لأول مرة - فيما أعلم - عن نجيب الكيلاني، وقدمه على أنه يمثل الوضعية الراهنة للأدب الإسلامي بعد أن قرأ له رواية واحدة لا غير هي: «رحلة إلى الله»، وهي رواية ليست تاريخية ولكنها معاصرة. ولم تكن المشكلة في أنه لم يقرأ لنجيب الكيلاني إلا رواية واحدة، وإنما المشكلة في أنه لا يرجع في حديثه عن الأدب الإسلامي إلى أي كتاب تنظيري أو تطبيقي، على الرغم من أنه أهدى إليه عدد كبير من هذه الكتب، لتتضح له صورة الأدب الإسلامي كما تراها رابطة الأدب الإسلامي العالمية التي انتسب إليها د. عبد الحميد إبراهيم، ولكنني لم أجد أي أثر لأي قراءة فيما تصوره مآزقاً

كانت هذه العبارة العارضة ذات دلالة، فهل يمكن لرجل متخصص في الفن الروائي والقصصي أن يتجاهل أحد كتّاب الرواية والقصة بهذه السهولة؟!

ثم دار الزمن دورته، ودعونا د. عبد الحميد إبراهيم للمشاركة في افتتاح الموسم الثقافي في المكتب الإقليمي لرابطة الأدب الإسلامي العالمية بالقاهرة عام ١٤١٢ / ١٩٩١ وعلى الرغم من أن هذا الافتتاح كان سيكرم فيه الشاعر محمد التهامي بمناسبة حصوله على جائزة الدولة التقديرية فإن د. عبد الحميد قدم موضوعاً عن الرواية والقصة ولكن تحت عنوان عام هو: «خصائص الأدب الإسلامي» ثم نشر هذا الموضوع في ملحق الأدب الإسلامي الذي كانت تصدره صحيفة «الرائدة» الهندية تحت عنوان: «الأدب الإسلامي ما هيته ومدارسه» [العدد ٥٨ ص ٢ - ٦] ثم نشر في مجلة الحرس الوطني تحت عنوان: (الأدب الإسلامي والبحث عن خصوصية) [العدد ١٤٢ ص ١٠٢ - ١٠٤]، ثم نشر في كتاب «التربية الدينية» الذي شاركه في تأليفه د. سيدة حامد ود. أحمد حجازي تحت عنوان: «الأدب الإسلامي» ولكن بعد أن قسمه إلى قسمين دونما ضرورة [التربية الدينية ص ١٢٥ - ١٣٥]، ومع أن هذا الموضوع في القصة والرواية وفي الأدب الإسلامي فإنه لم يذكر فيه د. نجيب الكيلاني بكلمة واحدة.

وظل الحال على هذا في تجاهله للدكتور نجيب حتى أرسل إلينا بحثه الذي نشر في العدد الحادي عشر من مجلة الأدب الإسلامي تحت عنوان: «نحو رواية عربية» [ص ٥٣ - ٦٨]، وهو الكتاب الرابع من مشروعه «الوسطية العربية» كما نشر هذا البحث مرة ثالثة في كتابه «التربية الدينية»

ناقصا، حتى يكون حكمه عليها صحيحا ناشئا عن تصور صحيح، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره كما هو معروف. وعبارة القراءة الناقصة التي استخدمتها عبارة مهذبة، لأن الذي لا يقرأ من الروايات الإسلامية إلا رواية واحدة لكاتب واحد تجاوزت رواياته الأربعين، ثم يتصدى للحكم والقضاء في قضية الأدب الإسلامي لا تسمى قراءته ناقصة ولكنها شبه محروقة.

فإذا ساء الدكتور عبد الحميد إبراهيم مني أنني لم أقرأ مشروعه كله كما قال، وأنني ركزت على الكتاب الرابع الذي أوقفه على الفن الروائي فكيف يقبل على نفسه وعلى وسطيته أن يحكم على الأدب الإسلامي وهو عازف عن قراءته إبداعا وتنظيرا ونقدا؟!

وإذا كان د. عبد الحميد قد رمز للوسطية بـ «العدالة» وهو يبحث عن الصفة الأولى في الخلق العربي الإسلامي (٢)، فأين هي العدالة رمز الوسطية في قاض يتخذ من نفسه خصما وحكما في قضية لا يصبر على دراستها من كافة أطرافها؟!

على أن د. عبد الحميد لو أمعن في قراءة رأي عليه لعرف أنني رجعت إلى وسطيته كلها، وإلى ماكتبته خارجها عن الأدب الإسلامي حسب طاقتي، وحينما طُلب إلي أن أكتب هذا التعقيب لم أكتف بما قرأت سلفا، ولكنني وسَّعت من قراءتي فيما جد من كتبه، أما التركيز على الكتاب الرابع فله سبب واضح، وهو أنه الكتاب الذي تحدث فيه عن الأدب الإسلامي، وهو الكتاب الذي تحدث فيه عن رواية عربية معاصرة، ومن هنا كان التركيز عليه أمرا طبيعيا.

إن الوسطية العربية كما تصورها د. عبد الحميد إبراهيم مشروع متكامل، فقد تحدث فيه عن كل شيء: الطبيعة

والجغرافيا والتاريخ، والجمال والفن، والحكمة والفلسفة، والأخلاق والتصوف، والقرآن والتشريعة، والأدب واللغة، والسياسة والقانون، والتربية والمنهج.. الخ فالأدب لا يمثل إلا جانبا من جوانب ووسطية د. عبد الحميد، وهو القدر المشترك بين مشروعه ومشروع الأدب الإسلامي، وهو يرى أن وسطيته يمكن أن تكون مشروعاً للنظرية العربية الأصلية التي تبحث عنها رابطة الأدب الإسلامي العالمية، ومن ثم فهو يعرض عليها مشروعه عسى أن تتبناه [كما جاء في حوار الذي نشرته مجلة الأدب الإسلامي في عددها الثامن]، ووسطية د. عبد الحميد هي ما يمنح الأدب الإسلامي مشروعيته [كما يقول في رده المنشور في هذا العدد]، وكأن الأدب الإسلامي يقع الآن خارج دائرة المشروعية مادام لا يستظل بمظلة وسطية الدكتور عبد الحميد!! فكان من الطبيعي أن يكون التركيز على الكتاب الرابع الذي يمثل قدرا مشتركا بيننا وبينه، مع الوقوف على الرؤية الكلية للمشروع كله.

وقد انتهى د. عبد الحميد في كتابه الرابع إلى أن جمال الغيطاني هو أقرب الروائيين العرب تمثيلا لجوهر الحضارة العربية الإسلامية، وتظل رواياته تطبيقاً لوسطية د. عبد الحميد (٣).

وترى رابطة الأدب الإسلامي العالمية أن د. نجيب الكيلاني هو أقرب الروائيين العرب تمثيلاً للرواية الإسلامية، وهو رائد الرواية الإسلامية بلا منازع.

وهنا وجه الافتراق..

فرمز الرواية العربية في وسطية د. عبد الحميد لا مكان له في الأدب الإسلامي بحسب الرؤية التي تتبناها رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

ورمز الرواية الإسلامية لا مكان له في وسطية د. عبد الحميد إبراهيم.

فإذا كان د. عبد الحميد يؤكد في رده هذا أن وسطيته تستمد أصولها من القرآن الكريم، فهل جمال الغيطاني ممثل وسطيته في الفن الروائي يستمد أصول الشكل الروائي من القرآن الكريم؟ وهل يستمد رؤيته الحضارية من القرآن الكريم؟! وإذا كان دور د. عبد الحميد في الكتاب الرابع أنه يصف ولا يبتدع ويسجل ولا يفترض [وهذا هو دوره أيضا فيما كتبه عن الأدب الإسلامي] فهل سجل ووصف كل المعروض من روايات على الساحة حتى وصل إلى هذه النتيجة؟!

لقد رأيت ريادة جمال الغيطاني لوسطية د. عبد الحميد إبراهيم مازقا لها، وسبب هذا المازق أن د. عبد الحميد غض الطرف عن كل عيوب الغيطاني الجوهرية التي سجلها هو بنفسه، خصوصا في روايته الطويلة «التجليات» وما سجله من عيوب في هذه الرواية أكثر وأعظم مما سجله من عيوب على رواية نجيب الكيلاني «رحلة إلى الله» ويكفي أن يقول د. عبد الحميد عن الغيطاني إنه «انتهى في التجليات إلى جسد بلا روح، وصدقت عليه الآية الكريمة: ﴿الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾» (٤)، فإذا كان الغيطاني تصدق عليه هذه الآية التي جاءت في وصف «الأخسرين أعمالا»، فكيف يكون ممثلا لمذهب يستمد أصوله من القرآن الكريم؟!

فهل يريد منا د. عبد الحميد أن نطرح ريادة د. نجيب الكيلاني للأدب الإسلامي ونهزول إلى جمال الغيطاني لنبايعه بالريادة حسب رؤية وسطيته للشكل الأصلي والمفهوم الحضاري للأدب الإسلامي الذي يقدمه د. عبد الحميد؟! وإذا كان هو قد قبل على نفسه أن يكون رمز وسطيته في الرواية

الاستغفار منه، وهذا أمر لم يزعمه أحد من أئمة هذا الدين، فمأزعم مالك ولا الشافعي ولا أبو حنيفة ولا أحمد، ولا غيرهم من علماء هذه الأمة أن الاختلاف معه ومناقشة رأيه وفكره خطيئة يجب الاستغفار منها، مع أنهم جميعاً كانوا يعتمدون على الكتاب والسنة أولاً في استنباط الأحكام التي يتعبد الناس بها، ولم تكن مصادرهم تدور حول ألف ليلة وليلة والمقامات والحكايات الشعبية والتراث الصوفي كما فعل د. عبد الحميد بحثاً عن الشكل الأصيل، إن هؤلاء العلماء كانوا يرون أنهم مجتهدون فمن أصاب، فله أجران، ومن أخطأ فله أجر، وكانوا يرون أن الرأي الآخر خطأ (لا خطيئة) يحتمل الصواب، وأن رأيهم صواب [وليس هو الصواب] يحتمل الخطأ، هذا هو ما نعرفه عن تراث أهل السنة والجماعة الذي يرى د. عبد الحميد أن وسطيته هي مذهب هؤلاء الأئمة الأعلام!! وبالرغم من هذا كله فإن د. عبد الحميد بدا له أن المنهج الجامعي الصحيح مُعَيَّب تماماً عن الدكتور زايد، لماذا؟ لأن «المنهج الجامعي يستخدم تعبيرات مثل: وأظن، وفيما أرى، ويخيل لي» أما د. زايد فهو يستخدم بدلاً من ذلك «تعبيرات تدل على الجزم والقطع واليقين لأنه وصحبه يصدر عن سلطة لا هوتية عليا» كما يرى أننا نضفي القداسة على نصوصنا الأدبية، ومن أين استنتج هذا الكلام؟ من قولني في ردي السابق عليه: إن مرجعية الأدب الإسلامي هي الكتاب والسنة أولاً، وهذا استنتاج عجيب، ولو صح قوله هذا للصقت هذه التهمة أولاً بمن يرى أن وسطيته ممثلة لمذهبهم، وهم أهل السنة والجماعة، فهم يتخذون من الكتاب والسنة المرجعية الأولى.

إن د. عبد الحميد يرى أننا نصدر عن سلطة لا هوتية عليا حينما نقاشه في

وسطيته، ونختلف معه في شأنها، ونرجع إلى الكتاب والسنة في التأصيل لما نذهب إليه، وهو لا يصدر عن هذه السلطة مع أنه يرى أن مناقشة وسطيته تمثل خروجاً على حضارة المنطقة، وذنبا يجب أن يستغفر الله منه!!

ومن عجائب الأشياء أن يقول بعد ذلك كله «فالوسطية تدور في عالم البشر، وتتقبل الجدل ولا تتستر وراء سلطة لاهوتية» وإذا كانت وسطيته على هذه الصفة فكيف أصبحت مناقشتها والخروج عليها ذنباً يجب علينا أن نستغفر الله منه!!

هذا الكلام له خبيء ... معناه ليس لنا عقول

وقديما قال المثل: رمتني بدائها وانسلت والذي يبدو أن د. عبد الحميد إبراهيم لم يتخلص بعد من حمية الجاهلية «التي تقف على النقيض من مذهب الوسطية» ومن الروح الصعيدية، فالرد عليه ومناقشته يدخلان عنده في دائرة الثأر، وهو ميراث جاهلي، مازالت له بقية في صعيد مصر، فهو يظن أنني حينما ناقشته إنما كنت أثار لنفسي، وأزود عن الحمى حتى لا يقترب منه أحد، ولما خيل إليه هذا قال: «وقد أثارني هذا الرد منه أيضاً، فاندفعت أثار لنفسي وأرد على الرد، وأزود عن أرضي وعرضي وعن وسطيتي العربية، وأنت ترى أنه ينسب الوسطية إلى نفسه، وقد نزلت على إرادته واحترمت رغبته فنسبته إليه غالباً في هذا التعقيب، وهي عنده بمنزلة الأرض والعرض، ونحن نعلم أن الصعيدي يمكن أن يرتكب جريمة قتل إذا مَسَّ عرضه، وأن الدماء يمكن أن تسيل أنهاراً من أجل شبر من الأرض، ومن هنا رأى أن القضية قضية ثأر ودم، ومادام المنطلق منطلق ثأر وذود عن الأرض والعرض ووسطيته فلا بد أن يكون هناك

اندفاع كما قال، ومادام هناك اندفاع فلتذهب الحجة والبرهان والمنطق والعقل إلي الجحيم، وهذه هي حمية الجاهلية.

ومن كان على هذه الشاكلة فلا بد أن يرى في الآخر خصماً، والدكتور عبد الحميد يرى أن مناقشة مشروعه تدخل في نطاق الخصومة ولا تدخل في باب الحوار (وقد سبق أن رأينا كيف يرى أن مخالفته تدخل في باب الخطيئة) حتى ولو كان يطمئن إلى نتائجها ويرى أنها سوف تنجلي كما تنجلي قيلولة النهار.

وأنا لا أرى في الدكتور عبد الحميد خصماً، فهو صديق أعتز بصداقته ولا أجامله حينما أقول: إنني أراه عالماً جاداً مجتهداً دؤوباً يبحث عن الأصالة في عالم الزيف والتلفيق، وإذا وازنت مشروعه بالمشاريع الأخرى التي تملأ سماء المنطقة، كمشاريع الطيب قيزيني وحسين مروة وأدونيس ومحمد أركون.. وحتى مشروع «الوساطة» لإدريس الناظوري الذي يرى فيه أن الوسطية انتهت عام ٤٠ من الهجرة وأنه منذ ذلك التاريخ بدأ عصر الوساطة، وهو عصر مستمر إلى الآن (٥)، ولست أدري إذا كان د. عبد الحميد يعرف هذا المشروع الذي يريد أن يسحب البساط من تحت أقدامه أم لا؟ أقول، لو وازنت مشروعه بهذه المشاريع وما كان على شاكلتها لرجح عندي مشروعه، لأنه ينبثق من التراث الحضاري الإسلامي ومن الخصوصية، ولقد أعجبني في مشروعه محاولته صك مصطلحات جديدة تتناسب مع خصوصيتنا كالوحدة التركيبية في مقابل الوحدة العضوية، والتجاورية في مقابل «الجدلية» والدفع في مقابل «الصراع» وكلها مصطلحات متجانسة، وهو بهذا يحاول أن ينتج المعرفة بدلاً من أن يكتفي باستهلاكها، وهذا كله أمر حسن ويحمد له. ولكنني في الوقت نفسه أراه ممن

ردود ومناقشات

يؤخذ منه ويرد عليه، وهذه مرتبة لا تكون إلا للعلماء، أم أن يرى في نفسه أنه فوق ذلك فهو وما يرى.

وقد يقال إن المشكلة التي يدور حولها الخلاف لا تستحق كل هذا الجدل، فالدكتور عبدالحميد إبراهيم ينطلق من الرؤية الحضارية للأدب الإسلامي ودعاة الأدب الإسلامي ينطلقون من الرؤية الإسلامية والتصور الإسلامي، وبين الرؤيتين نقاط اتفاق ونقاط اختلاف، وإذا كان دعاة الأدب الإسلامي يرون أن الأدب العربي في غالبه أدب إسلامي فإن مساحة الخلاف بينهم وبين الدكتور تضيق ولا تتسع، وهذا لا يختلف كثيراً عن الخلاف الدائر بين أعضاء الرابطة حول ما يدخل تحت مصطلح الأدب الإسلامي، فهناك أيضاً نقاط اتفاق ونقاط اختلاف.

ومع أن هذه الملاحظة صحيحة في ظاهرها، لكن هناك أمراً لا بد من أن نلتفت إليه، وهو أن أعضاء رابطة الأدب الإسلامي العالمية لا يجدون في نقاط الاختلاف ما يشعل نار الخصومة بينهم، فهم يتعاونون فيما اتفقوا عليه ويعذر بعضهم بعضاً فيما اختلفوا فيه، خصوصاً أن هذا الاختلاف لا يدور حول مسألة من مسائل العقيدة، ولا قضية من قضايا الشريعة، أما الأمر بالنسبة للدكتور عبدالحميد فهو مختلف، لأنه صاحب مذهب وقف عليه عمره، ويرى أنه قادر على أن يستوعب مشروع الأدب الإسلامي، فوسطيته هي «جوف الفراء» الذي يمكنه أن يستوعب كل الصيد، وسيظل الأدب الإسلامي في مأزق مالم يسلم زمامه إلى د. عبدالحميد حتى يدخله في «وسطيته» ومالم يطرح نجيب الكيلاني وراء ظهره ويسلم راية الريادة لمن حقت عليه الآية الكريمة (الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون

أنهم يحسنون صنعا) كما يقول عنه د. عبدالحميد.

وإذا كان د. عبدالحميد قد صرح بأنه كان في داخله إعجاب بالبطولة الفردية ومن هنا كان يستقطب أبو زيد الهلالي إعجابه في السيرة الشعبية، وكان يستقطب دارتانيان «وليس داتيران كما سجله في كتابه» اهتمامه في مغامرات الفرسان الثلاثة (٦). فإننا يمكن أن نفهم سر دفاعه المستميت عن وسطيته التي أنزلها منزلة العرض والأرض، فهذا المشروع الكبير يقوم على بطولة فردية هي بطولة د. عبدالحميد إبراهيم، إنه صورة عصرية من «أبي زيد الهلالي» ومن «دارتانيان» أما الأدب الإسلامي فالعمل فيه جماعي، والأعمال الجماعية تقوم دائماً على احتكاك الآراء وتجاوزها للوصول إلى الأحسن والأفضل، ولا تتضح قيمة الرأي إلا إذا تمحص في ضوء الاعتراضات والردود والمناقشات.

والبطل الفردي لا يعنيه إلا الغلبة والتفوق والإطاحة بالخصوم واكتساب الأرض الجديدة وهو دائماً في حالة تحفز استعداداً للانقضاض على من يحوم حول حماه مهما كانت النتائج، فهو كما يقول الشاعر المعاصر:

كما النحلة الغضبي لدى وخز
خصمها... تموت ولكن وهي مرتاحة
النفس

ولكن إذا كان الدكتور عبدالحميد إبراهيم قد ارتاح نفساً بعد أن صب جام غضبه علي وأفرغ شحنته مدفوعاً بحمية الجاهلية فهل يمكن أن ترتاح نفسه وهو يهدم عملياً ما بناه نظرياً في مذهبه «الوسطية العربية»؟

إن أول مبدءاً من مبادئ المذهب - أي

مذهب - هو الالتزام بالأصول النظرية لهذا المذهب، لكن د. عبدالحميد يدعونا نظرياً إلى مذهبه في الوقت الذي يضرب فيه بأصوله ومبادئه عرض الحائط، فهو يدعونا إلى السكينة ويندفع في رده بحمية الجاهلية، ويدعونا إلى المنهج العلمي في البحث ولكنه يفتي في الأدب الإسلامي بلا قراءة، ويلقي بالتهمة بلا بينة، ويرفع نظريته إلى مرتبة المقدس.. الخ، فهل يمكن أن ترتاح النفس بهذا التناقض الواضح بين المذهب وصاحب المذهب؟

■ وأخيراً أشكر الصديق الدكتور عبدالحميد إبراهيم على أنه دعاني إلى الاستغفار فقد دعاني إلى خير، وأشكره على أن دعاني إلى أن أتوجه إلى الله أن يجنبنا نحن أبناء الجنوب حمية الجاهلية، وأن يظلمنا بمقام السكينة.. اللهم آمين.

الهوامش:

- (١) الرواية العربية والبحث عن جذور ص ١١
- (٢) الوسطية العربية ٢ / ٣٤
- (٣) الوسطية العربية - الكتاب الرابع - نحو رواية عربية ص ٤٠٥، ٤٠٦
- (٤) الكهف آية ١٠٤
- (٥) مجلة المشكاة العدد ١٩
- (٦) الرواية العربية والبحث عن شكل ص ٧.